

المحاضرة الاولى :

حمدان بن عثمان خوجة وكتابه "المرآة":

المولد والنشأة:

وُلد حمدان بالجزائر العاصمة سنة 1773، ويَتَضَح ذلك من خلال رسالة بعث بها إلى "لويس فيليب" ملك فرنسا سنة 1835⁽¹⁾، قال متحدثاً عن نفسه: "انه بلغ من العمر 62 عاماً، أي خلال عهد المجاهد محمد عثمان باشا داي الجزائر (1179 - 1205هـ، 1765 - 1791م)⁽²⁾، ونشأ تحت رعاية أبيه عثمان.

هو كرغلي من أم جزائرية وأب تركي، جزائري المولد والنشأة، والعرق عن طريق الدم، ويظهر ذلك من خلال قوله: "وطني، إني جزائري، أبناء بلدي"⁽³⁾ في كتابه المرآة ومن خلال عرائضه التي رفعها إلى الحكومة الفرنسية ومذكرته⁽⁴⁾ التي سلّمها إلى اللجنة الإفريقية.

وينتمي مؤلفنا لأسرة حضرية عريقة من جهة الثروة والجاه، حيث اشتغل بعض أفرادها بالتجارة وبتولي الوظائف الإدارية، فقد كان أبوه عثمان فقيها مدرسا ومقربا إلى السلطة الحاكمة بالجزائر (البايك)، وهذا ما سمح لحمدان خوجة بتولي منصب أمين عام لدى الديوان برتبة مكاتبجي⁽⁵⁾، الأمر الذي أسبغ عليه اللقب الشرفي "أفندي" وهو لقب يطلق على كبار الموظفين بالجزائر، كما أن خاله من موظفي الديوان المكلف بالإشراف على شؤون العملة والمعروف "بأمين السكة"، ولذا صار حمدان خوجة من جملة الأعيان، ودفعه موقعه فيما بعد إلى تبني مواقف الحضر والكراغلة وأن يدافع عن مصالحها لدى سلطات الاحتلال الفرنسي في مدينة الجزائر (1830-1833)، وكان قبل الاحتلال قد شغل منصب مستشار لأول لدى الداي حسين، وبعد الاحتلال تولى عضو في مجلس بلدية الجزائر في عهد "دوبورمون" أما "كلوزيل" فقد ولاه لجنة تقدير تعويضات الأملاك المصادرة، حيث رفض تسليم عدة مساجد للفرنسيين الذين اتخذوا ذلك حجة لتدميرها وإقامة بدلها مؤسسات و طرق عمومية كما شارك في لجنة التعويضات الفرنسية لتعويض الأشخاص الذين هُدمت ممتلكاتهم للمصلحة العامة كما يقول المستعمر، و لكن الاستعمار الفرنسي تقطن لنواياهم فحلها،

و أغلق باب التعويضات. ورغم أن حمدان وصف فرنسا بالاستبدادية والظالمة، إلا أنه قبل بالوساطة مع أحمد باي بدعوته للاستسلام في زيارتين له الأولى في أوت 1832 والثانية في أكتوبر من نفس السنة⁽¹⁾.

تعليمه:

تعلم بمدينة الجزائر في كنف أسرة متعلمة، حفظ القرآن الكريم ودرس على أبيه الفقه والتاريخ والطب، وعرف إلى جانب اللغة العربية التركية والفرنسية والانجليزية، وكان ذا اطلاع واسع على الأفكار الأوروبية الحديثة وخاصة الحريات والقوميات بعد عهد التنوير⁽²⁾، ووفاته كانت ما بين 1840 و 1841.

ويظهر حفظه للقرآن الكريم في استدلاله بآيات كثيرة في كتابته وخاصة في "إتحاف المنصفين...."⁽³⁾، وهو ملم بالأحاديث النبوية والأصول الفقهية خاصة المذهب الحنفي مع قلة اطلاعه على المذهب المالكي. وله اطلاع على الأفكار الفلسفية والحضارات السابقة للإسلام، كاليونانية، كما أنه ملم بشكل واسع على أمهات الكتب في الفكر

الإسلامي ، ومما ساعده على أخذ حظ وافر من التعليم مكانته الاجتماعية ، وقد اكتملت ثقافته من خلال رحلاته عبر بلدان إسلامية ومسيحية .

لم تشغل تلك الثروة الطائلة والحياة السهلة حمدان خوجة على تلقي العلم واكتساب الثقافة ، فقد عمل على تنمية معارفه الأولية التي تلقاها عن أبيه وشيوخ بلاد الجزائر وهو صغير، ولم يكتف بمبادئ الفقه واللغة العربية، بل، سعى بمطالعته الخاصة إلى الاطلاع على العديد من الفنون الأدبية والمعارف الفقهية ، وأصبح على دراية بمسائل الأصول وعلم الكلام والمنطق والتاريخ والطب، كما نظم الشعر، وقد أكسبته أسفاره العديدة معرفة أولية باللغتين الانكليزية والفرنسية .

لقد قاوم حمدان الاحتلال بلسانه وقلمه، فاضطهده المستعمرون هو ورجاله ونفي إلى فرنسا فأقام بها ما بين 1833 و1836، ثم انتقل إلى القسطنطينية فاشتغل بالتأليف والصحافة وأشرف على تحرير جريدة "تقويم وقائع" الصادرة بالعربية العربية بإسلامبول ، ومع إعجابه بالتجربة الديمقراطية والليبرالية فقد كان يؤمن بالمبادئ الإسلامية .

أسفاره:

في سنة 1784 سحب حمدان خوجة وهو ابن التاسعة من عمره خاله الحاج محمد في سفارة إلى استانبول مكلفة بتقديم هدايا ديوان الجزائر إلى مقام السلطان العثماني، وقد تردد بعد ذلك مرات عديدة على مركز

الخلافة العثمانية (اسطنبول)، فأعجب بمنهجها ، وتعلق بمظاهر الحياة الراقية بها، كما زار بعض أقطار المشرق العربي وأقاليم البلقان، وفي طريق عودته من إحدى رحلاته نزل مدينة تونس (1801) وتعرّف على معالمها وحظي بحفاوة حاكمها حمودة باشا الذي حضر مجلسا له كان يشكو فيه من تصرفات بعض الجزائريين بتونس.⁽¹⁾ كما سافر إلى فرنسا (باريس) سنة 1820 واحتك بشخصيات منها "لويس فيليب"⁽²⁾ قبل أن يصبح ملكا سنة 1830 على فرنسا، وزار اسبانيا وبعض الولايات الايطالية إضافة إلى إنجلترا وفي كل هذه المناطق كان يمارس التجارة. وكان لهذه الرحلات الفضل في معرفة الفرنسية والانجليزية ولكن لم يتقنهما بدليل اعتماده على مترجم حين عرض أفكاره على الملك الفرنسي.

لقد كان رجلا عارفا بالثقافات والشعوب والتطورات السياسية والاقتصادية والفكرية التي طرأت على أوروبا منذ الثورة الفرنسية⁽³⁾ عن طريق المشاهدة والمعايشة . وكان يقارن ما كانت عليه بلاده الإسلامية (منها الجزائر) وبين ما أصبحت عليه أوروبا، ولكننا لا نعرف أنه كتب أو عبّر عن آرائه في ذلك قبل 1830⁽⁴⁾.

ساعده اغترابه عن الجزائر مدة سبع عشرة سنة قام خلالها بالعديد من الجولات في الأقطار الأوربية على توسيع مداركه وإثراء ثقافته واطلاعه على قضايا العصر وطبيعة الحياة في هذه الأقطار، وشهد أكبر التحولات العلمية واطلع على النهضة الأوربية ومشاكل الساحة السياسية والعسكرية وعلى حقيقة الصراع بين الأحلاف والكتل⁽⁵⁾. وأعجب خاصة بالحياة الراقية بباريس وقد تأثر في إحدى زيارته لها عند مشاهدة موكب الملك لويس فيليب وأسرته وهو يتجول في شوارعها ، وهو الذي تعود على أن حاكم الجزائر حسين باشا (1818-1830) لم يكن ليغامر بالخروج من حصون القصبة التي كان يقيم بها.

آثاره :

- المرأة⁽⁴⁾ : ألفه في باريس سنة 1833 بالعربية ثم ترجمه صديقه حسونة الدغيس⁽⁵⁾، ويعتبر من أهم المصادر التي أرخت للجزائر من أواخر العهد العثماني إلى بدايات الاحتلال، وكان موجها إلى الرأي العام ضد سياسة الفرنسيين في الجزائر.

- مذكرة قدمها للجنة الإفريقية في جويلية 1833 وهي الوجه الثاني لكتاب المرأة حيث حلل ووصف من خلالها طبيعة السكان الجزائريين واضطهاد السلطة الفرنسية .

- إتحاف المنصفين والأدباء في مباحث الاحتراس ن الوباء 1836،⁽⁶⁾ كتبه بالعربية ثم ترجمه إلى التركية ، وتعرض فيها لمسائل فقهية وأورد معلومات طبية مستفيدا من تجاربه الشخصية ومعرفته الخاصة بالحقائق الصحية، وحاول فيها إقناع القارئ بضرورة الانتفاع بتجارب الأوربيين وتقليدهم في نظام العزل الصحي "الكرانتينة" عملا بمبدأ الوقاية خير من العلاج حيث يقول: "ولما رأيت الخلل الداخل على المسلمين بإهمال هذه القواعد وإنكارها... ورأيت بالبلاد الفرنجية انتظام أمورهم حيث التزموا لدفع الوباء عنهم ما جربوه من

الاحتماء والاحتراز بالاستقرار في عدم إدخال الداخل إليهم إلا بعد تحقيق البراءة والاستبراء... وسموا ذلك كرننتينة...". وقد كان حمدان خوجة ينوي تقديم رسالته في الاحتراز من الوباء إلى السلطان محمود الثاني⁽¹⁾ تشجيعا له على الإصلاح وتأيدا له في أخذه بمظاهر الحضارة الأوربية، وترجمت الرسالة إلى اللغة التركية وكان يهدف إلى تطبيق أفكاره بحث العالم الإسلامي على اليقظة والأخذ بمعالم الحضارة الأوروبية ، ونتيجة التجارب التي توصلوا إليها الوقاية من الأمراض وكيفية علاجها ، كما نبذ التزمت وألح على التفتح ، وهذا الكتاب يشبه كتاب : " رفاة الطهطاوي"⁽²⁾ .

- "ستار الإتحاف" وهو ترجمة تركية لرسالة "الإتحاف".

- بالإضافة إلى الرسائل الكثيرة التي يتبادلها مع شخصيات متعددة.

وقد نظم الشعر وحلل منه قصائد ، وهذا مطلع لقصيدة ذيل بها كتابه الإتحاف :

نسيت صلاحي واشتغلت بغيري على حين غربتي وشيبي وضيري
وحيرة أهلي وعيالي لرحلة إلي وبيننا قواطع طير⁽³⁾.

و له تأليف في قضايا تتصل بالعقيدة وقضايا المجتمع منها رسالة "حكمة العارف بوجه ينفع لمسألة ليس في الإمكان أبدع"⁽⁴⁾، فرغ من تأليفه سنة 1252هـ / 1837م، وفيها يظهر تأثره بأبي حامد الغزالي

الانفتاح على الغرب والانبهار به:

يعتبر حمدان بن عثمان من الذين تقبلوا الاتصال مع الغرب ويعتبر رائد الإصلاح السياسي والاجتماعي في العالم الإسلامي آنذاك، فدعا إلى نبذ التعصب والتزمت الذي تميز به المحافظون في العالم الإسلامي الذين أخذوا بظاهر الآيات والأحاديث النبوية فأغلقوا باب الاجتهاد ورفضوا أخذ أي شيء من الكفار والفاعل لذلك كافر، فأدرك حمدان أن

ذلك سبب التخلف لهذا ناشد السلطان العثماني وأولي الأمر أن يسرعوا إلى وضع حد للأعمال العقيمة التي كانت تمارس، وأن يبادروا إلى الإصلاح، "يجب على السلاطين وعلى أولي الأمر... أن يبادروا بإصلاح ما يدخل عليهم الضرر (الرعية)... و لا يرخص لهم بعد تحقيق ذلك - أن يساعدوا الجهال على تصلبهم وجهلهم" (4) 'وحاول التنبيه لفائدة مهمة في التجديد، "إن كل عصر له متطلبات وخصائص جديدة ولدى ظهور عادة حديثة وجب التخلي عن القديم حتى نتفادى حدوث اضطراب وقلق في الشعب، وحتى لا يعرقل ذلك تسيير دولا لإدارة الناجحة" (5)، ثم انتقد الحكام الذين لم يطبقوا الشريعة

الإسلامية لأنهم لم يفهموا جيدا مبادئها السمحة والتي من بينها أن للضرورة أحكام (1).

ومن آرائه الإصلاحية إلحاحه على تطبيق الحجر الصحي الذي كان معمولاً به في أغلب بلدان أوروبا، حيث كان يفرض على المسافرين القادمين إلى أوروبا بأن يحجروا مدة عادة تقدر ب 40 يوماً وحين يتأكد خلوهم من الأمراض المعدية يطلق سراحهم، ومن المعلوم أنه لم يطبق في الجزائر وطبق في تونس والمغرب، و لم يعمم في البلاد الإسلامية بحجة أن المرض مقدر والحجر أتى من عند الكافر، ويرد خوجة بعدم الاختلاف بين ما جاء في الحجر الصحي وما يدعو إليه الدين الإسلامي، إذ قال: "لكشف حقيقة ما يستعمله الفرنج لمن يقف على رسالتنا حتى لا يتوهم من لفظ (الكرنتية) أنها أمر غير مرغوب يصادم ديننا... والأولى التزام الاحتياط في أول الأمر... وكل ما ذكرناه في تصرفاتهم ليس فيها ما يكره شرعاً ولا طبعاً (2)، وقال أن مبنى إنكار من أنكر كل ما ينسب إلى الإفرنج إنما مبناه على الجهل والتعصب (3). ويرى حمدان ضرورة استعانة العالم الإسلامي برأي الأوروبيين الذين تقدموا أشواطاً كبيرة في كيفية الاحتراس والتداوي من هذا المرض وغيره خلاف الذين أهملوا الطب مع كفاية وصرفوا اهتماماتهم إلى العلوم الشرعية والأدبية فكان للأوروبيين واليهود الصنائع المهمة وتوفرت لهم عساكر ومتاجر ونحن ضعفت قوانا.

لقد أدرك حمدان بهذه الروح المتفتحة عوامل تطور المجتمعات، ويعد بحق رائداً فقلما نجد شخصاً معاصراً له في هذا المستوى الفكري وله الفضل في تعريف العالم الأوروبي بحقيقة الشريعة الإسلامية .

دراسة كتاب "المرآة":

تأليف الكتاب:

كان غرض خوجة من كتابه أن يقدم إلى اللجنة الإفريقية كتاباً يضم معارف ووثائق وإحصاءات عن الجزائر بل أن تتوجه إليها، لأنه كان يعرف أن هذه اللجنة -التي ظن فيها العدل والخير - ستواجه أكداً من الوثائق والبيانات من الأوروبيين أنصار الاستعمار والاستيطان سواء كانوا إداريين أو عسكريين أو مواطنين عاديين .

وكان خوجة يأمل أن اللجنة ستحكم بعد التحقيق والاطلاع على كتابه الذي كتبه من موقع الخبير بالأوضاع والممثل لأهل بلاده، بجلاء الجيش الفرنسي ووقف الاستيطان ووضع حد لمصادرة الأوقاف وتغيير المعالم، وسلوك سياسة جديدة تقوم على الاعتراف بدولة يحكمها جزائري وترتبط مع فرنسا بعلاقات تجارية ممتازة. ولكن حلمه تحطم عندما حكمت

اللجنة بعكس ما توقع ،بل أوصت بدعم الجيش وتثبيت الإدارة واعتبرت الجزائر بلادا حيوية لفرنسا بعد أن درست موانئها وتجاريتها ومواردها الطبيعية وموقعها الاستراتيجي .

ألف حمدان خوجة كتابه "المرآة" بالعربية⁽¹⁾ في فرنسا خلال فترة قصيرة وذلك حين أعلنت الحكومة الفرنسية ،بالحاح من العرائض التي قدمها الأعيان ،ومنهم خوجة نفسه ،عن إرسال لجنة تحقيق .

ظهر الكتاب في باريس خلال أكتوبر 1833 بعنوان: **مضمون الكتاب:**

Aperçu Historique et Statistique Sur La Régence D'Algérie

Oriental H.D وبالعربية "المرآة" لحمدان خوجة مترجما من العربية على الفرنسية بقلم أي ح. د الشرقي (وهي الحروف الأولى للطرابلسي حسونة الدغيس).

اشتمل كتاب "المرآة" على مقدمة تحدث فيها عن الظلم الذي حل بالجزائريين وقارن بينهم وبين وضع غيرهم في أوربا ، وأثار فيها تساؤلات حول الوضع الصعب الذي كانت تعيشه البلاد الجزائرية وبيّن فيها الأسباب التي دفعته إلى التأليف والهدف الذي قصد به أن يكون جوابا شافيا وشرحا مفصلا للحالة التي آلت إليها الجزائر ثم رتبته على كتابين :

الأول :ويضم ثلاثة عشر فصلا تناولت حالة البدو وأصلهم وأخلاق البربر وعادات سكان السهول وركز بالخصوص على أهل متيجة القريبين من العاصمة .ثم تحدث عن سكان غرب البلاد وعاداتهم وسكان مدينة

الجزائر ،ووصف تنظيم وأصل الحكومة في العهد التركي و النظام السياسي والإداري و كيفية تجهيز سفن

القرصنة وتوزيع الغنائم والجيش أثناء حكم الدايات .كما ذكر حال الحاكم والمحكوم (الراعي والرعية) ،ولم يغفل سياسة الأرض وأنواع الضرائب والمغارم ،وأسابا انحطاط حكومة الأتراك في نهاية المطاف .وبعد أن تحدث عن دواخل الإيالة ، خص حسين باشا آخر دايات الجزائر ببعض الفقرات

أما الكتاب الثاني فقد ضم اثنا عشر فصلا ، وكلها تقريبا عن علاقة الجزائر وفرنسا .وهكذا كان الحديث عن الحرب وأسبابها ووصول الجيش إلى سيدي فرج ،والأعمال الفظيعة التي ارتكبت أثناء الاستيلاء على مدينة الجزائر .ثم الحديث عن البايات بعد الاحتلال ولا سيما مصطفى بومزراق باي التيطري ،ثم غزو كلوزيل البلدية والمدينة ،ومصادرة أوقاف مكة والمدينة ،ووصف الأملاك الأوروبية الجديدة ،وتقرب اليهود من الفرنسيين .

ضم هذا الكتاب ملحقا عن عدة وثائق من نسخ المعاهدات كلها عن النتائج السياسية للاحتلال خلال السنوات الأولى و منها مجموعة من عرائض تقدم بها الأهالي وبزعامة حمدان خوجة في اللجنة المعروفة بلجنة المغاربة .وقد أعلن خوجة في نهاية "المرآة" أنه سيؤلف جزءا آخر⁽¹⁾ بدليل أن النسخة الفرنسية الصادرة في شهر جويلية 1833 تحمل عبارة الجزء الأول.⁽²⁾ ولكن يبدو أنه لم يحقق ذلك. ولعل خيبة أمله في لجنة التحقيق واستحالة عودته إلى بلاده في تلك الظروف قد تثبتت من عزيمته وجعلته يهتم بمصيره.

لم يكن حمدان خوجة مؤرخا حين أقدم على تأليف المرآة، وقد كان خوجة عندئذ رجلا سياسيا برز في وقت الأزمة ليمثل أهل بلاده لدى الرأي العام الفرنسي ورجال الحكومة الفرنسية ولكنه اضطر إلى الرجوع للحوادث التاريخية ،فتناول ذلك في

الكتاب الأول

من خلال عرض مضمون كتاب المرأة يتضح لنا أن مؤلفه تناول فيه أوضاع الجزائر الطبيعية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية بصفة شاملة وبمنظرة متفحصة ومعلومات جديدة تعكس اطلاعه على أحوال الجزائر وتظهر مدى معرفته بواقع الإدارة العثمانية ، نتيجة ثقافته الشخصية ومعرفته الخاصة، مما استقاه من الحكام والموظفين والتجار الذين كان على اتصال بهم ،وفي طليعتهم التجار اليهود المتنفذين مثل بكري وبوشناق الذين ارتبطوا بالأتراك من أجل المصلحة، وقد جمعوا في تلك الظروف أموالا طائلة⁽³⁾.

عبر حمدان خوجة فيما كتبه في المرأة عن مواقفه من الأحداث، وأبدى رأيه في القضايا المطروحة ، وحاول قدر المستطاع استخلاص النتائج انطلاقا من المعلومات التي عرضها والوقائع التي سجلها وهو في ذلك يهدف إلى إقناع القارئ والمتلقي ،وقد عرض الأحداث التاريخية الواقعة في العهدين العثماني والفرنسي ،كما عمد إلى ترتيب المعلومات ومقارنتها مما أكسبها منطقية وقربها من ذهن القارئ .

لقد تعامل حمدان خوجة مع أحداث عصره وقضايا مجتمعه بفكر أوربي إذ تفاعل مع النزعة الرومانسية والتوجه القومي والسلوك الليبرالي الذي طبع الثقافة الأوربية والفرنسية خاصة ،وقد حرص من خلال فهمه لأوضاع عصره واحتكاكه بالأوربيين وتعامله مع الفرنسيين على تجنب أسلوب المواجهة والتحدي، فحاول أن يسلك سبيل إقناع النخبة المثقفة والحاكمة في فرنسا ، فعمد إلى مخاطبتهم انطلاقا من الأفكار التي يسلمون بها ومن أقواله في ذلك: "إن مسألة الجزائر مسألة خطيرة لأنها تخص حياة أمة بأجمعها"⁽¹⁾ وأن "الجزائر أمة لها مقومات شخصياتها كالدين واللغة والعادات والتقاليد ، وأن ما يقوم به الجيش الفرنسي في الجزائر مناف للسلوك الإنساني ومتناقض مع مبادئ العدالة والحق ، وإن قادة فرنسا مدعاة للفخر فالجنرال "لواردو" رجلا شريفا حقا ذا أخلاق كريمة في مستوى أمة عظيمة (فرنسا)"⁽²⁾ . وتلك الأعمال تتم باسم نفس فرنسا التي تدافع عن مصالح الشعوب وتحارب الحكم المطلق والتي يوجد من أبنائها أكبر الأساتذة في الأخلاق وفي حقوق الإنسان⁽³⁾.

بمثل هذه العبارات حاول حمدان خوجة كسب عطف الشخصيات الفرنسية المؤثرة ، وكان يأمل من وراء ذلك التأثير على مخططات فرنسا في الجزائر ، وقد أدى به ذلك في موقف حرج فهو من جهة يحاول كسب رضا الفرنسيين حتى يحافظ على عضويته في بلدية الجزائر ، وفي اللجنة المكلفة بالنظر في تعويض الأشخاص الذين هدمت منازلهم للمصلحة العامة على عهد إدارة "كلوزيل" للجزائر ، وفي الوقت نفسه يحاول بكتاباتة الحدّ من مظالم الجيش الفرنسي على الجزائريين ويصرفهم عن سعيهم للعمل على ضم الجزائر واستعمارها ، ففي الفصل الرابع من المرأة يحاول إقناع الفرنسيين بالعدول عن فكرة الاحتفاظ بالجزائر بحجة أنها عديمة الفائدة لفرنسا لإمكاناتها الطبيعية والبشرية ، وأن سهل متيجة القريب من مدينة الجزائر والذي كان هدفا لأطماع المعمرين الفرنسيين ، موطنا لحمى تظهر في أوقات متقطعة ، فتصيب السكان⁽⁴⁾.

القيمة العلمية للمضمون التاريخي:

إن ما أورده حمدان ابن عثمان خوجة من معلومات عن تصرفات الجيش الفرنسي بما كتبه غيره من الكتّاب الفرنسيين المعاصرين للأحداث أمثال: "بيشون"، "بروساد"، أما ما يرويّه عن الفترة التي لم يشاهدها كنظام الدولة في القرن 17، ونظام الميليشيا...، فيذكرها معاصرو هذه الأحداث في كتبهم بنفس الدقة التي رواها خوجة⁽¹⁾.

وقد وصف بدقة عادات وتقاليد مختلفة لسكان الجزائر من بدو وحضر وهي عادات ما زالت إلى اليوم⁽²⁾.

مصادر حمدان خوجة وأهميتها للكتابة التاريخية : استند على مصادر من الدرجة الأولى وتتمثل في :

-المشاهدة المباشرة: وهي أساس مرآته فهو مخضرم عاش عهدي أواخر الأتراك وبدايات الاستعمار الفرنسي، خصوصا وأنه كان من المقربين للهيئات الحاكمة أو المسيطرة، ونجده يذكرها قائلا: "لو لم أكن متخوفا من وضعية بلدي البئيس وما سببته لي شيخوختي لجمعت مزيدا من الوثائق حول هذه المنطقة من إفريقيا .

-الأخذ عن الثقة: مثل البايات ،ويصرح بما أخذه عن غيره : "أما سكان الصحراء البعيدة ،فإنني لم أزرهم شخصا وما أقوله عنهم إنما هو رواية عن أشخاص موثوق بهم"⁽³⁾ ،وعندما تعرض لرسم حدود مقاطعة الغرب قال: " تبدأ حدود هذه المقاطعة في مليانة (شرقا) وتمتد إلى وجدة غربا ...وقد أخذت هذه التفاصيل عن باي قديم مارس سلطته في وهران ثم في قسنطينة "⁽⁴⁾ ،وكذلك فيما يخص بكري وبوشناق اصل مشكلة الجزائر مع فرنسا فيقول: "إن أحد الأسباب لهذه الحرب هو المطالبة التي تقم بها بكري للحكومة الفرنسية "⁽⁵⁾.

المرآة وغرض تأليف:

الكتاب موجه للفرنسيين وليس للجزائريين ،وقد كتب مختصره "المذكرة إلى الرسميين في الجزائر ،وبعث برسالة منها إلى اللجنة الإفريقية .

لقد أراد خوجة أن يؤثر على الشعب الفرنسي وحكومته بطريقة سرد صور فيها وحشية الفرنسيين من العسكر، من إثارة العواطف وإلهاب المشاعر، فيضغطون على حكومتهم بالاحتجاجات فهو يقول:

"البلاد يقودها الظلم والطغيان منذ ثلاث سنوات"⁽⁶⁾ لها دين وعادات وتقاليد ...

إذن فهي أمة بحق لها أن تتمتع بسيادتها لما لها من عناصر تميزها عن غيرها كاليونان الذين انفصلوا عن الدولة العثمانية⁽¹⁾.

أما تأثيره على الحكومة فيظهر في التماسه من الملك "لويس فيليب"⁽²⁾ فعل شيء حتى لا يعاني من قساوة التاريخ ،لأن هذه الأعمال التعسفية حدثت في عهده ،كما استعمل أسلوب التخويف من ثورة الأهالي ومخاطر الصحراء⁽³⁾ ،ويصر على نزع فكرة صلاحية الجزائر للاستعمار ،"فما هو الهدف من قيامها بمثل هذه الحملة أ يكون ذلك لمجرد الرغبة في إبادة الناس أم لأجل نيتها الحمقاء في اكتساب أراض لا تنبت شيئا"⁽⁴⁾ ،وذلك لتزهد الفرنسيين في الجزائر .

النقد :

إن المطالب الخاصة بحمدان والتي رفعها للفرنسيين قد أضرتهم وحكم عليه بالدفاع عن مصالحه⁽⁵⁾ . كما أنه لم يفهم حركة الاستعمار الحديث فهو يسأل تساؤلات تتم وتؤكد عدم فهمه لهذا الاتجاه الجديد كقوله: "أود من كل قلبي أن تسهر

الحكومة الفرنسية على قضية إيالة الجزائر ،وأن تأمر على الأقل ،بأن تقوم اللجنة التي أرسلت إلى تلك البلاد بالاستماع إلى شكاوى وتبليغات سكانها لكي يظهر الحق ويذهب الباطل⁽⁶⁾.

هذا ،وقد استفاد الكتّاب العسكريون من كتاب المرأة بفوائد جلية ومجانية من حيث الاطلاع على الأحوال الاجتماعية والنفسية للشعب الجزائري،ومن حيث خصائص كل منطقة جزائرية،ومعلومات عن تاريخ البلاد وخصوصا العهد العثماني

رغم ما في القسم الأول من معلومات وإحصاءات وحوادث ،فإنه عندئذ كان نوعا من الانطباع عن الحكم العثماني في الجزائر ،ولكن خوجة لم يتبع في ذلك الطريقة الإسلامية مثل الاعتماد على السنوات وذكر العهود والدول ،بل إنه كان ينتقي موضوعاته التي كانت تبدو اجتماعية واقتصادية وإدارية ،أكثر منها سياسية

.ويكاد رأيه في الحكم العثماني أن يكون سلبيا ،وهو رأي معظم الجزائريين عندئذ ،ولكن بالمقارنة إلى ما

ارتكبه الفرنسيون خلال ثلاث سنوات فإن حمدان خوجة ظهر مفضلا للحكم العثماني ،حين قال

:"صاروا(أي البدو) يتمنون الحكم التركي الذي مكنهم من الاستفادة من منافع كثيرة حرموا منها "⁽¹⁾.

كما أن خوجة قد وقع في تناقضات ،فمن جهة يريد أن يظهر للفرنسيين عدم جدوى الاستفادة من أراض لا تثبت شيئا كما ذكرنا سابقا،وفي إطار حديثه عن سكان السهول قال:"الأراضي شديدة الخصب بحيث أن ارتفاع سنابل القمح والشعير يزيد في بعض الأحيان عن قامة الرجل،وفي أثناء الحصاد تُهمل السنابل القصيرة...ولذلك فإن الحيوانات تكون دائما سميكة والحليب جيدا وكثيرا"⁽²⁾.

التقييم:

ورغم ذلك فإن كتاب المرأة يعتبر اليوم مصدرا أساسيا لتاريخ الجزائر في أواخر العهد العثماني و بدايات الاحتلال نظرا لمكانة المؤلف اجتماعيا وثقافيا ،والفترة التي عاصرها أقل ما يقال عنها أن أحداثها كتبت من وجهة نظر جزائرية متمكنة من الكتابة لمعرفتها بخطورة التأريخ⁽³⁾.و حسب الدكتور أبو القاسم سعد الله هو أول وثيقة سياسية وتاريخية كتبها أحد الجزائريين وقدم فيها أحكامه عن النظام العثماني من جهة والاحتلال الفرنسي⁽⁴⁾ من جهة أخرى.وكانت مذكرات الشريف الزهار ستكون في نفس الأهمية لو بقي منها القسم الذي يصف الاحتلال .أما القسم الذي نشره الشيخ المدني منها فهو يشبه الكتاب الأول من المرأة⁽⁵⁾ .

إن حمدان خوجة يمثل هذه المواقف وتلك الأفكار كان يتصرف بنظرة مثالية وعاطفة رومانسية مبهورة ببريق الحضارة الغربية،كما كان يتعامل في نفس الوقت بدافع المصلحة الذاتية والفهم الآني للسياسة الفرنسية بالجزائر التي من الراجح أنه لم يكن يعرف أبعادها ،وهذا ما جعل أفكاره رغم جدّيتها وحداثتها تبدو غير واقعية بل ساذجة في بعض الأحيان ،ونابعة من عاطفة رومانسية جياشة كما يبدو ذلك من قوله:"إن مصاعب بلدي تقلقني باستمرار.ولقد كنت في كثير من الأحيان ،وأما أسجل تلك المصاعب ،أجبر على التوقف عن الكتابة لأترك المجال لدموعي فتتساب"⁽⁶⁾. وذلك يعكس تيار العصر

السائد وهو مزيجا من الحكّتين الرومنطقية والقومية اللتان سادتتا أوربا بكثير من الحساسية، فهو يريد أن يدخل الجزائر في هذا الإطار، لعلها تحظى بشيء من حساسية الشعوب الأوربية⁽⁷⁾.

إن التفاعل الذي أظهره حمدان خوجة مع قضايا عصره وحاجات مجتمعه، والأفكار التي عبر عنها في كتاباته وخاصة في المرأة من قبيل المطالبة بالأخوة والعدالة وحق الشعوب في الحرية والسيادة، تجعله في طليعة المثقفين المسلمين الذين دعوا إلى الأخذ بالقيم الحضارية الغربية في مجتمعاتهم، كما يعتبر واضع أسس مطالب النخبة السياسية الجزائرية⁽¹⁾ في الربع الأول من القرن العشرين، وهذا ما يجعل منه بحق مصلحا سياسيا. ولعل هذا ما جعل سعد الله في معالجته لتاريخ الحركة الوطنية الجزائرية يعتبر حمدان خوجة ليس رائدا للحركة الوطنية في الجزائر فقط وإنما رائدا لعصر التنوير في العالمين العربي والإسلامي الذي نتج عن الاتصالات الثقافية بين الشرق والغرب.⁽²⁾

شكّل كتاب المرأة احتلاله الصدارة في المقاومة السياسية، والصدارة في التأريخ للجزائر رغم أن جزء مهم منه لم يكن تاريخا آنذاك وتناولت أحداث الاحتلال وحكمت عليه بالفشل من البداية واستتكرت فظائعه وأرسى لمقاومة سياسية تظهر تدريجيا مع مطلع القرن العشرين .